الفصل الأول

سوق الطرف الغربي

لقد جربت شبه جزيرة ايبريا تناقض العيش بين عالمين، خلال العصر الوسيط بمعظمه. فهي تقع في الطرف الغربي من البحر الأبيض المتوسط المسلم، وفي الطرف الجنوبي لأوروبا الغربية، فكانت جزءاً من الاثنين. وليس جزءاً كاملاً من أي منهما، وكان لهذا البعد دور مبرِّز في انطلاقة شبه الجزيرة في حين بقيت عاملاً مقبولاً في نظر مسلمي ومسيحيي العالم، وكانت شبه الجزيرة خلال القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر، تتبع عالمين أو مجالين، المسيحي في الشمال والمسلم في الجنوب حيث تتبدل الحدود(*) عبر القرون، فقد كانت إسبانيا كجبهة (أقصد بها شبه الجزيرة بالكامل) بوابة بين عالمي المسيحيين والمسلمين، متيحة بذلك عبور الدبلوماسيين، والعلماء واللاجئين والجنود والتجار.

سيركز هذا الكتاب على حركة ومرور التجار وبضائعهم مِنْ إسبانيا المسلمة وإليها (الأندلس بالعربية) منذ القرن العاشر حتى القرن الثاني عشر.

فقد ساعد التجار وتجارتهم الدولية على حفظ الروابط بين الأندلس والمناطق الأخرى من عالم البحر الأبيض المتوسط المسلم والمسيحي،

(*) المقصود أن الحدود الجنوبية هي المغرب وأفريقيا من ورائها فهي واسعة ومتبدلة، بينما كانت حدود الشمال المسيحي شبه ثابتة، (إضافة المعرب).

وشكلت الجزيرة، خلال هذه القرون الثلاثة وجوداً أو كينونة اندمجت مع عالم الإسلام الواسع أي دار الإسلام. وعلى الرغم من بعد المسافة الجغرافية عن القاهرة وبغداد ومكة فقد بقيت مدن الأندلس على صلة وثيقة مع مسلمي المشرق، وكان الأندلس جزءاً حقيقياً من عقلية مسلمي البحر الأبيض المتوسط، وديانتهم ومجال تجارتهم، وقد بقيت الاتصالات مفتوحة بالنسبة للرحالة والرسائل والبضائع التي عبرت بالاتجاهين بسهولة وانتظام، حتى في زمن النزاع السياسي بين الأنظمة المسلمة في الشرق أو الغرب، وقد مخرت مراكب التجار وحمولاتها البحر الأبيض المتوسط بين الشرق والغرب وبتواتر كاف كي تجعل الرحلة التجارية من مصر إلى الأندلس «تجربة رتيبة مملة»[1]. وقد نافست تجارة الأندلس الدولية معظم أوجه وأشكال اقتصاد العصر الوسيط الواسع في البحر الأبيض المتوسط، خلال هذه القرون الثلاثة. لقد كانت بنية التجارة الأندلسية مماثلة للتجارة المعاصرة في الأماكن الأخرى، ولم يكن هناك أي شيء استثنائي خاص في آلية التجارة الإيبرية، وعلاقات تجارها أو الشحن البحري أو الموقف الحكومي تجاه التجارة أو قوى السوق. وكما لاحظ برودل أنه كان هناك، وخلال زمن طويل، عوالم متطابقة أو شبه متطابقة... فعلى تخوم مثل تلك البلدان المتباعدة، والمختلفة، بالتعبير العام، مثل اليونان وإسبانيا وإيطاليا وأفريقيا... [عوالم حيث يمكن] العيش بإيقاع متماثل.. [مع] الإنسان، والسلع... قادر على التحرك من بلد إلى آخر دون أي حاجة للتأقلم[2].

ومع كل هذه المتشابهات فقد كان الأندلس يختلف عن الأقطار الإسلامية الأخرى، فقد كانت شبه جزيرة إيبريا على التخوم بين دنيا المسلمين، ودنيا المسيحيين، وكان القطر الوحيد في عالم البحر الأبيض

---

(1) S.D Goitein, A Mediterranean Society. The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza [Brkeley, 1967 - 88] I, P. 42.

(2) F. Braudel The Mediterranean and the Mediterranean World in The Age of Philip II, New York, 1966, p.23.

المتوسط الذي بقي جبهة خلال ثمانية قرون، وقد كان للأندلس دور فريد في تجارة غرب المتوسط، كمنطقة عبور ومستودع تجاري امتدت من خلاله الاتصالات التجارية عبر التخوم بين العالم الإسلامي والغرب اللاتيني. ومن وجهة النظر المتوسطية الإسلامية كان الأندلس سوق الطرف الغربي، فهو مستهلك للمستوردات الغربية ومصدر للسلع الأندلسية، ومحطة على طريق البضائع القادمة من أوروبا باتجاه الجنوب إلى دار الإسلام، وكان الأندلس من منظور أوروبي مسيحي نقطة اتصال مع ميدان التجارة الإسلامية، وإحدى القنوات للحصول من خلالها على وسائل الترف المرغوب فيها: مثل توابل الشرق والمعادن الثمينة والأنسجة والورق ومواد أخرى.

وقبل توسع آفاق التجارة الأوروبية والأنشطة التجارية في أواسط العصور الوسطى استطاع الأندلس المجاور أن يقدم كثيراً من الأشياء الجيدة في حياة المسيحيين اللاتين.

ولقد انحلت هذه الوظيفة التجارية الفريدة في النصف الأول من القرن الثالث عشر، عندما أعيد تنظيم القوى في شبه الجزيرة إثر تقدم الانتصارات المسيحية وظهور التوجهات نحو توسع عسكري وتجاري مسيحي في جميع أنحاء عالم البحر الأبيض المتوسط.

وقد تضافرت التبدلات الاقتصادية مع الفتوح على الأرض كي توجه الجزيرة تجارتها شمالاً نحو أوروبا المسيحية بعيداً عن عالم الإسلام.

إنه لمن الضروري إلقاء نظرة عامة على تاريخ الأندلس من أجل إظهار أصداء الأحداث السياسية والاقتصادية في بنية التجارة الدولية الأندلسية. لقد أصبح الأندلس جزءاً من العالم الإسلامي سنة 711 عندما عبر الجيش الإسلامي مضائق جبل طارق وفُتحت فيزيجوت Visigoths وجعل من معظم الجزيرة ولاية عربية تتبع الخليفة الأموي بدمشق. وعندما طُرِدَ الأمويون من قبل العباسيين في وسط القرن القادم، تحول مركز القوة في السياسة الإسلامية الشرقية، وثقافتها واقتصادها إلى العراق، وتهمش دور الأندلس،

وتحول، وهو الجاثم على الطرف الغربي الإسلامي، إلى وجود مستقل تحت ولاية أميره الأول عبد الرحمن (I) الداخل (756 . 788) أحد القلة الباقين من أفراد العائلة الأموية.

وعلى الرغم من الاستقلال الجديد لمملكته لم يعلن عبد الرحمن نفسه كخليفة ولم يعترف بخلافة العباسيين في خطبة صلاة الجمعة في الأندلس، ولكن بقيت شبه الجزيرة مرتبطة ثقافياً بدار الإسلام.

وظلت التطورات الدينية والفكرية الأندلسية تُتَابع عن كثب الاتجاهات الشرقية المنشأ. فقد أعجب أهل شبه الجزيرة بشعراء وعلماء بغداديين وقرأوا لهم، في حين أن القراء الشرقيين لم يعطوا كتَّاب الغرب الأندلسيين سوى اهتمام قليل. كما اشتهر سكان قرطبة، وهي العاصمة الأموية، في القرن التاسع بولعهم بالأَزياء، وسلوك أهل بغداد، ذلك أن الأندلسيين من التجار والعلماء والحجاج كانوا يرحلون إلى الشرق طالبين العمل والعلم والحج، كما اتصل الأندلسيون بالمناطق المسيحية داخل وخارج شبه الجزيرة خلال القرنين الثامن والتاسع.

وقد بقيت ثغور الأندلس وحدودها مع إسبانيا المسيحية مستقرة بصورة واضحة في هذه الفترة لأن جيش المسلمين احتفظ بالتفوق، كما أن فكرة المسيحيين عن إعادة الفتح (أو الفتح باسم الصليب لاستعادة الأراضي المفقودة سنة 711 بعد فتح المسلمين)، لم تأخذ جذورها قبل القرن الثامن، ولم تعطِ ثمارها إلا بعد قرنين. وقد امتدت مصالح الأمويين بعيداً إلى بيزنطا، كما يبدو من خلال الاتصال الدبلوماسي بين قرطبة والقسطنطينية في القرن التاسع.

وهناك المزيد من الأدلة على وجود علاقات بين قرطبة وآخن Aachen في ذلك الزمن. فبعد التوسع الكارولنجي Carolingian في تخوم إسبانيا ثم هزيمتهم المنكرة على يد الباسك Basques في رونسفال Roncevalles (يحتفل بذكراها دائماً وإن كان بصورة غير دقيقة في رولاند) تم تبادل

السفارات بين البلاطين الأموي والكارولنجي، كما سجل فيما بعد وجود علاقات دبلوماسية بين الأمويين والزعماء الأتونيين Ottonian[3].

لقد نمت التجارة من خلال اتصالات أخرى، وبدأت الأسواق الأندلسية تفيد كقنوات تجد فيها بضائعُ المسلمين طريقَها من شبه الجزيرة والشرق البعيد إلى المستهلكين في شمال إسبانيا وأماكن أخرى من الغرب اللاتيني. وبالتعبير التجاري، أمكن للأندلس أن يكون له دور مسيطر في علاقاته مع المقاطعات المسيحية أكثر من دار الإسلام. وإن القوى العاملة الأندلسية الماهرة والتطور الصناعي الجيد والزراعة المعقدة وفر للأندلس المزيد مما تقدمه إلى الممالك الشمالية الرعوية الأقل تطوراً على المستوى التقني أو التكنولوجي.

لقد أنهت التطورات السياسية في القرن العاشر وضع الأندلس كتابع في علاقاته مع العالم الإسلامي المشرقي، ولكن عندما أعلن العاهل الأموي عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة في سنة 929، أصبح مسلمو إسبانيا كلاعب رئيس على خشبة مسرح السياسات والتجارة المتوسطية، لقد انطلقت شرارة إعلان الخلافة الأندلسية بعد انحسار (وليس اختفاء) قوة العباسيين في العراق وظهور الفاطميين، وهم سلالة شيعية أقدمت على خطوة لا سابقة لها بإقامة أول خلافة منافسة في تونس سنة 909 (وفي مصر بعد سنة 969). وبإتخاذ عبد الرحمن لقب خليفة، وضع الأندلس في موقع متنفذ داخل عالم البحر الأبيض المتوسط الإسلامي، ودعم إعلانه هذا بقوة عسكرية ودبلوماسية. فقد استولت القوات الأموية بين 920 . 930، على عدد من الموانئ على طول شواطئ شمال أفريقيا: واستخدمتها كمصدات ضد الفاطميين ومحطات من أجل تجارة الأندلس ومداخل إلى مناطق غرب أفريقيا المنتجة للذهب. وعندما بدأت دور السك بإنتاج الدنانير الذهبية للمرة الأولى سنة 929،

(3) E. Lévi - Provençal "Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au Ixe Siècle". Byzantion 12 (1937). PP. 1-24, A.A el Hajji. Andalusian Diplomatic Relations With Western Europe during The Umayyad Period, Beirut, 1970.

ساعدت هذه النقود المعدنية على إظهار القوة السياسية والاقتصادية الأموية في الداخل والخارج.

ومع إعلان الخلافة الأموية في الأندلس، وظهور الخلافة الفاطمية في تونس ومن ثم في مصر، وأُفول العباسيين في بغداد، اضطلع عالم البحر الأبيض المتوسط بنشاط وقوة جديدين في القرن العاشر. ولقد فازت وتفوقت الفرص الاقتصادية المناسبة ومشروع التاجر على التنافرات الدينية، كما ظهرت شبكة تجارية وصلت بين أسواق الأندلس وصقلية وتونس من جهة، وبين مصر من جهة أخرى. إن توقف بغداد عن كونها محور التجارة الحاسم، سمح لموانئ مدن البحر الأبيض المتوسط (وخاصة الماريا وتونس والمهدية والاسكندرية) أن تغدو بؤرة أسواق التجارة على طول محاور البحر الأبيض المتوسط الشرقية والغربية النشطة. وقد دل ظهور هذا النظام التجاري الجديد الفعال على نهضة في تجارة المتوسط التي أصابها الكساد ومن ثم همدت لا محالة، خلال القرنين الماضيين. إن الطلب على البضائع المحصورة بقنوات شرق المتوسط قد أصبحت تأتي عن طريق المحيط الهندي بعيداً عن الخليج العربي . الفارسي وعبر طريق البحر الأحمر إلى مصر. وكانت تتوزع من مصر شرقاً وغرباً عبر الطريق الرئيس إلى الأسواق في أفريقيا والأندلس، وتوزع من هناك إلى طرق ثانوية نحو البلاد المسيحية والأسواق التابعة الأخرى. وكانت الأسواق الأندلسية عنصراً أساسياً وحاسماً في هذا النظام إذ إنها لم تكن تستورد وتوزع المستوردات الشرقية وحسب، بل صدرت السلع الإيبرية إلى ما وراء شرق المتوسط. وكانت الزراعة والصناعات الأندلسية قد تطورت جيداً أو تنوعت خلال القرن العاشر، ما سمح بتوازن معقول في التجارة بين الشرق والغرب.

لقد سَجَّلَ الدّورُ ما بين القرن العاشر حتى أواخر القرن الثاني عشر، حيث بقي نظام التجارة المتوسطي الإسلامي فاعلاً، سَجَّلَ مرحلةَ استقرارٍ نسبي لتجارة الأندلس الدولية. وإن تكامل تجارة إسبانيا المسلمة مع المحور التجاري المتوسطي قد أعطاها سنداً، ومن ثم كانت أسواق الأندلس مؤهلةً

للاحتفاظ باتصالاتها التجارية القوية والبعيدة، وأمكنها من ممارسة مهنتها حتى عند مواجهتها عقبات كبيرة ثلاث، كان أولها بعد المسافة الواقعي والحسي معاً، وثانيها الاضطرابات السياسية الأندلسية الداخلية، وثالثها التغيير في ميزان القوى بين المسيحيين والمسلمين في شبه الجزيرة وعالم المتوسط الواسع. وكان ممكناً التغلب على العقبتين الأوليين، ولكن وقوع الثالثة في نهاية الأمر قد دمر تجارة الأندلس وشبكة البحر الأبيض المتوسط الإسلامية.

وقبل المضي في معاينة التاريخ السياسي، فإن مناقشة مفاهيم البعد والمسافة، يلفت النظر إلى وضعية الأندلس داخل عالم التفكير الإسلامي خلال الدور الأموي وما بعد.

كان التجار والرحالة الآخرون يعلمون أنه من الممكن قطع المسافة الطبيعية، وأن الرحلة من الماريا إلى الاسكندرية من الممكن انجازها في شهرين. لقد كان إدراك المسافات صعباً على التحقيق، وفوق ذلك، يبقى الأندلس نائباً على تخوم الخارطة الذهنية الإسلامية. وكان التناقض واضحاً في الكتابات الجغرافية حول الأندلس فهو جزء من دار الإسلام ولكنه في الواقع بعيد وليس جزءاً كاملاً منه، وقد قدم الجغرافيون العرب في القرن التاسع عشر وصفاً وخرائط تمثل شبه الجزيرة الإيبرية في الطرف الغربي من الأرض، وقد وصف ابن الفقيه الجغرافي المشرقي في بداية القرن العاشر، سكان العالم على أنهم «معروفون بين الأندلس والصين»[4]. وفي منتصف القرن الثاني عشر عَدَّل فنيو الخرائط، وكذلك الجغرافي الأدريسي الذي وصف (نحو 1150) وصفاً واضحاً صورة الأندلس وأنهاره ومدنه على أنها لا تزال في واقع الأمر أبعد نقطة معروفة في غرب العالم، وبعدها يأتي محيط فارغ تماماً، وأضحت هذه الصورة أو المفهوم حقيقة واقعة خلال سنة بعد

---

(4) Ibn al - Faqih, Kitāb al - buldān, ed. M. J. de Goeje. BGA, 2nd ed, V, Leiden 1967, P50.

ابن الفقيه، كتاب البلدان....

وضع الإدريسي خريطته، وقد ابتعدت الأندلس بمعظمها عن العالم الإسلامي وتحول نطاق عملياته نحو الجنوب وعبر البحر إلى شمال إفريقيا في منتصف القرن الثالث عشر. ولم تكن المشكلة مركزة في المسافة البعيدة وحسب بل في الوضع الفريد للأندلس وبقائه جبهة لفترة طويلة منعت شبه الجزيرة من الاندماج الكامل في صورة العالم الإسلامي.

وقد شدد الوصف الجغرافي على دور الأندلس كأراضٍ حدودية، وكان له نوعان من الحدود طبقاً لجغرافيي القرن العاشر، وهما الإصطخري وابن حوقل، واحدة على طول جبهته مع إسبانيا المسيحية «بلاد الكفار» The Land of The Unbeliever والأخرى على طول شواطئه[5].

وبسبب أن التعبير العربي ثغور Thughur كان يستعمل للدلالة على جبهة أرضية أو شاطئ بحري، فقد كان الأندلس محاطاً بالكامل بالحدود، كما أن الوصول إلى بقية العالم الإسلامي يتطلب رحلة عبر مضائق جبل طارق. وكانت موانئ المدن في الجنوب بما فيها اشبيلية/ سيفيل Seville وملقا Malaga والماريا، قنوات اتصال بالمناطق الإسلامية الأخرى، وكانت مدن الشمال مثل برشلونه Barcelona وتاراجونا Tarragona بوابات الأندلس[6]، وكانت توديلا Tudela (شمال زاراكوزا Zaragoza محاذاة ايبرو Ebro) «أقصى حدود المسلمين» ونقطة يمكن فيها للتجار والرحالة الآخرين العبور إلى داخل «بلاد الكفار»[7].

---

(5) Istakhri, Kitab al msālik wa al - mamālik (ed. M. J. de Goeje, BGA, 2nd edn, 1, Leiden, 1967, P.413 Ibn Hawqal, Kitāb Ṣurat al - ard, ed. J. H. Kramers. Leiden, 1938, P109.

الاصطخري، كتاب المسالك والممالك.... ابن حوقل، كتاب صورة الأرض.

(6) Ishaq b. al - Husain, «Il compendio geografico arabo di Ishaq ibn al-Husayn», ed and Trans, A Codazzi and C.A. Nallino, Rendiconti della R. academia nazionalè dei lincei, Rome, 6th series, 5, 1929, P. 411.

اسحق بن الحسين: المختصر الجغرافي العربي لاسحاق بن الحسين.

(7) ibn Ghalib, «Nass andalusi jadid qat'ia min Kitāb Farha al-anfūs li-Ibn Galib» [ed L. 'Abd Bādī], Majalla ma'had al-makhtutat al-'arabiya I, 1955, P287.

وكان لبعض المؤلفين نظرة كئيبة إزاء وضع الأندلسيين، مثل ابن بسام (ت 1147) الذي يندب أو يتفجع على شعب الأندلس الذي يعيش، قرب المسيحيين في بلاد واقعة أقصى أولئك المغلوبين من قبل الإسلام، بعيدين تماماً عن تأثير التقاليد العربية، محاطين ببحر واسع[8]. وكذلك يبدو الأندلس في الكتابات الأدبية على طرف العالم الإسلامي.

فهذا مؤلف مجهول يروي حكاية أو نادرة، وبأسلوب عجيب خيالي عن أن الملك سليمان استنطق غيمة وهو يرقب وجهة سيرها. واكتشف أنها عبرت السماء من «بوابة للفردوس، تدعى الأندلس في أقصى الغرب»، إلى عبدان في الشرق[9]. ويتذكر ياقوت (ت 1229) المؤلف المشرقي، بنفس الطريقة والمزاج البيت الشعري:

سألت القوم عن أنسٍ، فقالوا بأندلس، وأندلسٌ بعيد[10]

ولعل ابن حزم العالم الأندلسي، في القرن الحادي عشر، يلخص وضع الأندلس المتناقض بين المسافة والوحدة أو الإنسجام حيث كتب: «ثم بينت أنه وإن كان [محبوبي] في أقصى المعمور من المشرق وأنا في أقصى المعمور من المغرب، وهذا طول السكنى، فليس بيني وبينه إلا مسافة يوم إذ الشمس تبدو في أول النهار أول المشارق وتغرب في آخر المغارب. . .»[11].

= ابن غالب: نص أندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب، لـ. عبد البادي، مجلة معهد المخطوطات العربية.

(8) H. E. Kassis, «Muslim revival in Spain in The 5th/11th Century», Der Islam 67, 1990 P. 83.

(9) L. Molina, ed. Una descripcion anonima de al-Andalus, Madrid, 1983, P.17.
وصف مجهول للأندلس.

(10) Yaqut. Mu'jam al -buldan; Jacut's Geographisches Worterbuch , ed. F. Wüstenfeld Leipzig. 1873, 1, P375.
ياقوت الحموي معجم البلدان.

(11) Ibn Hazm, Tawq, al-hamama, ed. T.A. Makki, Cairo, 1975, P.135.
ابن حزم، وقد نقلنا العبارة من طبعة دمشق "طوق الحمامة" لابن حزم. وتقع في الصفحة 990، (المعرب).

كان الأندلس نائياً دون شك، إلا أن مرور الناس والأفكار كان مؤمناً، ذلك أن شبه الجزيرة لم تكن قط دون اتصال مع الإسلام المشرقي، وقد كتب الشاعر اليهودي، يهودا هاليفي Judah Ha-Levi: «قلبي في الشرق، وأنا على طرف الغرب.. يا ليتني أعيش بين طيب الأشياء كلها في إسبانيا؛ كم هو رائع رؤية الثرى والضريح المنهار».

لقد حقق رغبته وارتحل إلى الديار المقدسة سنة 1140[12]. وعندما وصل، رحب به أصدقاؤه المشرقيون والمعجبون بتوق، وقد دلَّ حماسهم على تبدل مهم منذ عهد باكر. فقد بدأ الأندلس بالظهور كمشارك أكثر مساواة في عالم الفكر العربي خلال القرن العاشر. وقد ازدهر العلم أو المعرفة الأندلسية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فقَدَّمَ شخصياتٍ مثل: ابن رشد وابن حزم وابن طفيل وموسى بن ميمون ويهودا هاليفي، وقد دُرس الأدب والمعرفة الأندلسيين وقُدِّرا حَقَّ قدرهما في المشرق أكثر فأكثر، وبدأ علماء الغرب بالترحال شرقاً للتعليم والتعلم في آن معاً.

لقد كانت التبدلات في العلاقات بين الأندلس والعالم الواسع، المسلم والمسيحي معاً واضحة في المجال السياسي. وقد شهد القرنان الحادي عشر والثاني عشر جَيَشَاناً أو ثَوَرَاناً في السياسات الأندلسية الداخلية، على الرغم من أنها لم تكن كافية لتخريب محور التجارة المتوسطية.

وبعد قرابة قرنين ونصف من عهد أموي مركزي مستقر نسبياً في الأندلس، تقوضت السلالة الحاكمة في أوائل القرن الحادي عشر (ويؤرخ هذا عادة في 1031) إثر النزاع على الخلافة أو الوراثة والحرب الأهلية.

(12) The Penguin Book of Hebrew Verse ed. and Trans: T. Carmi, London, 1981, P347.

وظهر مكانها دويلات مستقلة صغيرة دعيت بالطوائف أو ملوك الطوائف Party Kingdoms وكانت سيرة هذه الدول الصغيرة تشدد على الاختلافات العرقية التي وُجدت في المجتمع الأندلسي دائماً. ومثال ذلك، حكمت سلالة العباديد العربية في إشبيلية، وسيطرت سلالتان بربريتان هما الحموديد والزيديد في ملقا وغرناطة بالتتابع في حين أمسك ما يدعى بالصقالبة (أو العبيد) بالسلطة في المدن الساحلية في الماريا وفالنسيا وتورتوزا[13].

إن تفكك الدولة الأموية إلى ممالك صغيرة قد أضعف تماسك الأندلسيين، على طول الجبهة، البلاد، وقدمت الفرصة المناسبة للعواهل المسيحيين في الشمال (في جاليسيا، وقشتاله وليون Leon ونافار Navarre، وأراجون Aragon، وقتلونيا أو كتلونيا Catalonia)، لكسب موقع أفضل، ولم يعد العواهل المسلمون قادرين على الدفاع كلٌّ بمفرده عن حدوده ضدَّ الجيوش المسيحية الأخرى أو أي منها منفرداً. وبحث كثير منهم عن تحالف مع دول الشمال.

دفعت دول الطوائف جزية (باريا Paria) شهرية أو سنوية إلى العواهل المسيحيين[14]. وهذا الموقف معاكس تماماً لما كان عليه الحال في القرن العاشر حيث كانت الممالك الإسبانية المسيحية تدفع الجزية للأمويين. ودفعت الباريا إلى رامون برنجر الأول Ramon Berenguer I صاحب قتلونيا خلال سنة 1040 وما بعد، وستغدو قريباً ظاهرة واسعة الانتشار، وكانت

---

(13) D. Wasserstein, The Rise and Fall of The Party Kings: Politics and Society in Islamic Spain 1002 - 1086, Princeton, 1985.

(14) إن التعبير باريا Paria قد اشتق إما من بَرَأَ Bara' العربية (حر، حرر، بيَّن ديناً) أو من بَرَأَ، Barà' التي تعني في بعض التصريفات وهب أعطى، تنازل، ويتضمن الفصل الثاني مزيداً من النقاش حول ضريبة باريا).

بعض دول الطوائف تدفع جزيات مضاعفة، وخاصة مملكة زاراكوزا Zaragoza التي كانت مجبرة على جزية لـ قتلونيا وأرجل ونافار وقشتالة وأراجون حيث تشترك بالحدود مع كل منها، في حين أن الطائفة المعزولة تدفع جزية واحدة فقط. لقد كان دفع الجزية استنزافاً لخزائن عواهل الطوائف. ولكنه لم يؤذِ التجارة الدولية الأندلسية. وقد أشارت البراهين من القاهرة الجنيزا ومن أماكن أخرى إلى أن التجارة بقيت ناشطة في أواسط القرن الحادي عشر، بفضل التجار الكثر الذين ينقلون بضائعهم عبر الطرق الرئيسة بين الماريا والاسكندرية. وكان هذا في واقع الأمر نجاحاً حقيقياً للتجارة الأندلسية في هذه الفترة وبصورة خاصة الفوائد المكتسبة من صادرات الحرير، التي سمحت لملوك الطوائف أن يفوا بدفع جزيتهم (الباريا). إلا أن الجزية لا تَحفظ السلم. بدأ المسيحيون بقواتهم يندفعون نحو الجنوب محطمين ثقة المسلمين بأنفسهم باستيلائهم على طليطلة Toledo في سنة 1085. وقد أظهر فقدان طليطلة الحاجة إلى المساعدة العسكرية، فقدّمت الدعوة إلى المرابطين، وهي سلالة بربرية مقيمة في مراكش، فوصلت قواتها إلى شبه الجزيرة في سنة 1086، وسرعان ما أوقفت التقدم المسيحي إثر معركة الزلاقة Zallaqa ووطدت سيطرة المرابطين على شبه الجزيرة وشمال إفريقيا معاً. وكان التوحيد المرابطي علامة نهاية الإنقسام الطائفي. وثُبت الأندلس كجزء من مملكة واحدة ضخمة، وساعد التنظيم المركزي الجديد على تقوية الأندلس عسكرياً، وتوقف دفع معظم الباريا، أي الجزية، وكذلك تباطأت الغارات المسيحية، ومع ذلك فإن قوات المسلمين لم تتمكن من تدبير أمر استعادة طليطلة. وأدّى الانشقاق الداخلي إلى تفتت قوة المرابطين في أوائل القرن الثاني عشر، كما أن الظهور القصير للطوائف قبل سلالة بربرية أخرى، مكّن الموحدين من دمج الأندلس في امبراطوريتهم الأفريقية الشمالية في سنة 1147.

إن اتساع مساحة أراضي دولة المرابطين والموحدين، التي امتدت من الأندلس عبر معظم شمال أفريقيا (وضمت مناطق تمر فيها طرق تجارة الذهب القادمة من غرب أفريقيا) أعطى هاتين السلالتين ثقلاً اقتصادياً لا سابقة له في عالم البحر الأبيض المتوسط، إن نفوذ النظام المرابطي، قد ظهر بصورة خاصة من خلال انتشار عملية تقليد دينارهم الذهبي (مرابطون Murabituns) في إسبانيا المسيحية، وجنوب أوروبا، فقد سيطروا على موانئ منتشرة من بالنسيا أو فالينسيا إلى طرابلس في عهد الخليفة عبد المؤمن 1130 . 1163م. كما تحكمت هذه السلالة بالمعابر البحرية الحساسة في مضائق جبل طارق من عاصمتهم الأندلسية إشبيلية أو سيفل، وساعدت السيادة الموحدية بالتعاون مع السلالة الأيوبية في مصر على الحفاظ على الطرق الرئيسة المتوسطية المسلمة بين مصر والأندلس، ومع ذلك كانت هذه الشبكة من الطرق قد بدأت تُبلى من خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر، ولا يكمن هذا التفسخ داخل العالم الإسلامي وحده، بل حيث بدأت المصالح التجارية في مصر تتجه نحو الشرق أي نحو المحيط الهندي، وخارج دار الإسلام، بالإضافة إلى التطور المعاصر في أوروبا والمتوسط المسيحي. لقد كانت التبدلات في التجارة عاملاً من عوامل التبدل البطيء بل العميق الذي بدأ في أوروبا وعالم البحر الأبيض المتوسط منذ القرن العاشر إلى الرابع عشر. وقد اتحدت مجموعة اتجاهات القوة السياسية والعسكرية والبشرية والاقتصادية لتعيد تحديد التوازن بين المسلمين والمسيحيين شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً. إن نهوض سكان أوروبا وصناعاتهم وتجارتهم ساهمت جميعها في تبديل مركز القوى في عالم البحر الأبيض المتوسط، وأخيراً فإن نمو دول المدنية الأوروبية الجنوبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، بما فيها مدن جنوا وبيزا والبندقية Venice وفلورنسا ومرسيليا وبرشلونة، خلق لاعبين حقيقيين وجُدُد على مسرح غرب البحر الأبيض المتوسط، وقد

ظهرت هذه المدن كقوى بحرية وتجارية لم يكن يجهلها العواهل المسلمون في الأندلس وغيرها.

ومع فتوح المسيحيين العسكرية في شبه الجزيرة الإيبرية، كان هناك تقدم في كل نواحي البحر الأبيض المتوسط، فقد غدت صقلية تحت حكم النورمان في سنة 1060، وما يلي حتى 1070 قبل وقت قصير من انطلاق أول حملة صليبية نحو فلسطين. ولكي تدعم المدن الايطالية مؤسساتها التجارية دفعت أسطولها السريع في محاولات بحرية مع پيزا لمهاجمة المهدية سنة 1087، وقامت پيزا وجنوا بتقديم العون للحملات المسيحية في شبه الجزيرة الإيبرية خلال 1090، كما مهد التفكك الداخلي في الأندلس خلال عصر الطوائف لفتح القشتاليين طليطلة سنة 1085. ولقد فتحت أحداث العالم الإسلامي الطريق إلى هذا التقدم المسيحي، وتميز منتصف القرن الثاني عشر في المغرب الأوسط بالتمزق، بعد أن انتقل الفاطميون إلى مصر.

وكانت غزوات البدو في أفريقيا متبوعة بغزو النورمان، وقد سببت الاضطراب للتجارة والزراعة في جنوب مركز البحر الأبيض المتوسط ما قدم المزيد من الانفتاح للتجارة المسيحية الانتهازية، كما كانت دول المشرق الإسلامية في حالة تفكك في ذلك الزمن. فالسلاجقة سيطروا على بغداد سنة 1055 مُتَحَدِّين الحكمَ الفاطمي في سورية، وملحقين الهزيمة بالقوات البيزنطية في منزيكرت Manzikert سنة 1071 وبدأ التجار الأوروبيون بفضل التقدم العسكري في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، باستثمار أسواق البحر الأبيض المتوسط والطرق التي كانت تخضع للتجار المسلمين واليهود سابقاً. وذلك بفضل التقدم، أما الطرق البحرية الممتدة على طول الطريق الرئيس شرقاً وغرباً، والتي كانت مجالاً للتجارة الإسلامية واليهودية فقد استولى عليها الأسطول المسيحي أو أنها انتقلت إلى طرق الشمال حيث

انتقلت الأعمال التجارية بعيداً عن المرافىء الإسلامية، وإن اندماج جزر البحر الأبيض المتوسط (بما في ذلك باليريك Balearics وكورسيكا، وسردينيا وكريت) في المجال المسيحي اللاتيني سمح للسفن الايطالية والفرنسية القتالية بالسيطرة على طرق سريعة وآمنة على امتداد شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشمالية متحاشية بذلك الصخور السطحية والريح العكسية على شواطئ أفريقيا الشمالية[15]، وفي غضون ذلك، فإن نمو المدن والسكان والمصالح التجارية في إيطاليا وجنوب فرنسا وقتلونيا قد خلق ملكيات مشتركة جديدة في تجارة البحر الأبيض المتوسط. ولقد ازدهرت أعمال هؤلاء التجار بسبب فرص التجارة الناشئة التي ظهرت بسبب بدء مطالبة المستهلكين الأوروبيين الشماليين بالسلع المتوسطة، كما أصبح الباعة أكثر وعياً أو إدراكاً للصناعات والتصدير الأوروبي، وقد جلبت الفتوحات المسيحية الإسبانية في شبه الجزيرة النهاية للحكم الإسلامي في الجنوب بمعظمه خلال النصف الأول من القرن الثالث، فقد سيطر فرديناند الثالث Ferdinand III صاحب قشتالة على قرطبة في سنة 1236 وعلى إشبيلية في سنة 1248، بعد أن سبق وانتصر جده في لاس نافاس، من أعمال تولوزا في سنة 1212، وفتح جيمس الأول James I صاحب أراجون ملورقا Mallorca بين 1229 . 1230 وفالنسيا في 1238، وأعطى التوحيد السياسي والتوسع اقتصاداً وسكاناً وأراضي جديدة وثوباً جدياً لحكام الشمال المسيحيين. وقد حكم فرديناند الثالث قشتالة وليون موحدتين في أواخر 1230، في حين اندمجت أراجون وقتالونيا وفالنسيا مع تاج أراجون، ولم يبق في يد المسلمين من السلالة الناصرية سوى مملكة غرناطة محاصرة من الجنوب بشاطئ جبل طارق وشرقاً بالماريا وتمتد شمالاً إلى سييرا نيفادا.

---

(15) J. Pryor's Geography, Technology, and War: Studies in the Maritime History of The Mediterranean, 649 - 1571. Cambridge, 1988.

إذا كان من السهل نسبياً القبول بواقع أساسٍ للتبدل من السيطرة المسلمة إلى المسيحية في عالم البحر الأبيض المتوسط، فالأصعب هو إيجاد تفسير لهذا التحول، فمن صف النظريات الفجة القائلة بالتفوق الثقافي إلى فرضيات ذكية تُدخل مختلف التطورات الإوالية، أو التكنولوجية والزراعية، والبنية السياسية والعسكرية، والميزان التجاري والمادي أو البشري ثم رد الفعل تجاه هذا التبدد أو الموات الأسود . Blak Death ويوجد كثير من التفسيرات الاقتصادية بما فيها ملاحظة أو إدراك لوبيز Lopez لثورة اقتصادية، قامت في أوروبا بين 950 . 1350 تفترض أن سبب التبدل يرجع إلى ظهور شيء جديد في الغرب المسيحي في هذا الدور[16]. فهناك بعض التوحيد أو التركيب في التطورات الأوروبية الداخلية، وثمة طاقة غربية جديدة انطلقت، ونمو تجاري وزراعي ومدني دفع إلى تفوق اقتصادي وعسكري في البحر الأبيض المتوسط. وهناك نظريات أخرى، نذكر منها لأبي اللغد الذي يرفض هذه النظرة الأوروبية، مفضلاً مكانها تطورات في أماكن أخرى من عالم العصور الوسطى، وهي التي خلقت موقفاً أوصل في النتيجة إلى خلق السيادة الأوروبية، في أواخر القرن الرابع عشر. ومن هذا المفهوم أو الإدراك، فإن صعود أوروبا إلى السلطة لم يكن له علاقة أو لا شيء يربطه بشيء أوروبي متأصل فيها، بل بعقبة أو عائق، ونقص في الحيوية اللازمة في مكان آخر[17]. ولكن ما من نظرية تضمنت دور شبه الجزيرة الإيبرية، بموقعها على الحدود الإسلامية المسيحية وتحكمها الخطر بمضائق جبل طارق، كمساعد في شرح سبب التبدل في الميزان الدولي. إن تحليل التجارة

(16) R.S Lopez, The Commercial Revolution of The Middle Ages 950 - 1350. New York, 1971.

(17) J. Abu - Lughod, Before European Hegemony, The World System A.D 1250 - 1350, Oxford, 1989.

الإيبرية الدولية قد أمسك بالمفاتيح، وليس بأجوبة تامة عن مشكلة تغير الميزان الاقتصادي والميزات العسكرية. كما يقدم هذا التحليل منظوراً جديداً لصورة أخرى مألوفة ومباشرة عن البلاد التي أهملها العلماء المعاصرون بتجارتها أو بدونها بصورة ملفتة للنظر، وثبتوا صورة متناقضة عن إسبانيا كعنصر هامشي في عالم العصور الوسطى. ونُظر إلى تاريخ إيبريا وكأنه مجتزأ من مجرى التاريخ الأوروبي الوسيط، ولم يكن مركزاً في اهتمامات المؤرخين من دارسي العالم الإسلامي. وبعد قدوم الإسلام وقعت شبه الجزيرة في صورة وصفية تاريخية لبلاد وكأنها دون سكان أو أراضٍ نائية، وقعت بين مجالين أو ساحتين متصارعتين. واتجه مؤرخو العصور الوسطى إلى التركيز على العزلة، والاختلاف والطبيعة الفريدة لإسبانيا دون البحث عن دمجها أو تكاملها داخل مُركّب أوسع. وتتوقف نصوص كتب أوروبا العصور الوسطى على تغطية الأحداث عند جبال البيرينيه (ربما مع إشارة إلى الحج في كومبوستلا Compostela، حتى أن أعمالاً مكرسة للمواجهات بين المسيحية والإسلام تتجه إلى إهمال التخوم الغربية، بعد إشارة مقتضبة إلى بواتيه Poitiers ورونسفال Roncevalles والمترجمين في طليطلة Toledo. وبالمقابل، فإن تألق ثقافة الأندلس، قد أوصلته بصورة مألوفة، إلى مكان للحنين الوطني في نصوص كتب التاريخ الإسلامي، أما الفصل القصير عن إسبانيا المسلمة، فيبدو غالباً، بصورة غير لبقة مطعماً في كتابِ كُرَّس، بطريقة أخرى، إلى مسائل أو أمور الشرق الأدنى، حتى أن الكتب التي تبحث عن التأكيد على «نظام عالمي» في العصور الوسطى، تُبعد شبه جزيرة إيبريا عن الاندماج أو حتى الاتصال بمناطق أخرى[18]، حيث يبدو هذا

(18) انظر على سبيل المثل خارطة أبو اللغد لنظام العالم في القرن الثالث عشر قبل السيطرة الأوروبية Abu - Lughod, Before European Hegemony, P, 34.

بصورة جلية. ويجب الانتظار إلى عصر متأخر وحسب، حيث أدرك برودل Braudel من خلال نظرته إلى «عالم البحر الأبيض المتوسط» حيث ظهرت إسبانيا كعنصر متحد أو مندمج في المشهد المتوسطي الأوروبي.

ويبدو هناك عاملان إيبريان ممكنان ساهما في صنع هذه الرؤية لعالم متوسطي متعانق ومطوق في القرن السادس عشر أكثر مما كان عليه في القرن الثاني عشر. الأول وهو أن شبه الجزيرة الإيبرية، لم تعد بين، أو في ما بين، بل أصبحت جزءاً من أوروبا، والثاني: أن استيلاء العواهل الإيبريين المسيحيين على مضائق جبل طارق، أخذ بعين الاعتبار الوحدة البحرية لشمال أوروبا والبحر الأبيض المتوسط.

وقبل الانتصارات المسيحية في إسبانيا كانت هذه الوحدة مستحيلة، وبعد أنجازها، ظهر نظام تجاري شمالي جنوبي جديد تماماً، وكانت شبه الجزيرة على طرفه الجنوبي.

إن الانتصارات المسيحية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وأوائل الثالث عشر قد خربت محور التجارة المتوسطية المسلمة، بل شقت طريقاً لإعادة تنظيم شبه الجزيرة الإيبرية مع أوروبا ولفتح الاطلنطي. ولقد كان الأندلس قطراً مسلماً وثغراً غربياً من عالم امتد شرقاً إلى ما بعد الهند، خلال خمسة قرون تقريباً أو من 716 . 1212م تماماً. وكانت مراكز الحياة الأندلسية في البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى مع العلماء المرتحلين إلى بغداد والقاهرة ورجال أعمال يتاجرون مع الاسكندرية وتونس، ويوجه الحج طريقهم إلى مكة والقدس، وبعد أواخر القرن الثالث عشر، عاد المجتمع والاقتصاد الإيبريين ليتركزا شمالاً نحو الأطلنطي وشمال أُوروبا، وتوقف الأندلس عن الوجود، وصارت شبه الجزيرة مجالاً مسيحياً واسعاً وجديداً، جاراً جنوبياً تواقاً إلى الثقافة

الأوروبية ومجالها التجاري، ومكتشفاً وجهة جديدة نحو باريس وبروج Bruges ولندن، وجنوى وروما. وقد ظلت شبه الجزيرة جزءاً من عالم المتوسط. والجديد هو أن سواحلها الأطلنطية أخذت منحىً واتساعاً جديدين حيث وصلت الطرق البحرية المتوسطية بمدن باي Bay وبيزكاي Biscay وبحر الشمال. وفي الوقت ذاته حول تجار العالم الإسلامي أعمالهم الدولية شرقاً نحو البحر الأحمر والمحيط الهندي بعيداً عن البحر الأبيض المتوسط ومحوره. وقد تغيرت وظيفة أو عمل الأسواق الإيبرية مع فتح الأطلنطي وإعادة تنظيم التجارة لشبه الجزيرة وتوجيهها نحو أوروبا. وخدمت الأسواق الأندلسية التجار المحليين والأجانب معاً، وصدرت أنواعاً كثيرة من السلع، واستوردت البضائع الشرقية، وتوظفت كمراكز عبور تجارية واصلة التجارة المسيحية مع نظام البحر الأبيض المتوسط في آن واحد. وبالمقابل فإن التجارة بين شمال أوروبا وأسواق قشتالة وأراجون وغرناطة، كانت أقل توازناً في القرن الثالث عشر حتى الخامس عشر، وخلال هذا العصر، فقد تقسمت تجارة شبه الجزيرة بين مناطق تجارية مختلفة، مع تلك الجنوبية المراقبة من قبل تجار أجانب بصورة تامة. وصار اقتصاد شبه الجزيرة تابعاً لاقتصاد أوروبا الشمالية على نطاق واسع. ولم تتأخر إسبانيا عن إنتاج مواد خام متنوعة، وسلع مصنعة، ولكن عوضاً عن صادرات شبه الجزيرة، اختصت بعدد معين من المواد التي جُهزت لمقابلة الطلب الخارجي (وغالباً ما أُنتجت للمنافسة مع أنواع أرقى من أماكن أخرى) وتابع المستهلكون الإيبريون، في الوقت نفسه، الطلب على سلسلة واسعة من المستوردات من شمال أوروبا ومن البحر الأبيض المتوسط على حد سواء، وبقيت الموانئ الإيبرية الجنوبية تعمل كأسواق للسلع والتحويل، ولكنها لم تكن محطات رئيسة لوقت طويل، ولم تكن لتسيطر على تجارتها الخاصة، ولم تُفد، خلال القرن الرابع عشر، سوى كمراكز رئيسة للمراكب العابرة على طول الطريق بين

المتوسط والأطلنطي. وقد ازداد التناقض أو ازدواجية شبه الجزيرة بصورة ساخرة في أواخر العصور الوسطى وغدت أقل اندماجاً مع الاقتصاد الأوروبي في القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر مما كانت عليه التجارة الأندلسية داخل العالم الإسلامي، من القرن العاشر إلى الحادي عشر.

وأصبحت شبه الجزيرة الإيبرية الآن جزءاً في أقصى الطرف الجنوبي للعالم المسيحي الغربي، ولكن ليس جزءاً كاملاً من أوروبا.